الافتتاحية

حينما بدأنا التجهيز لإصدار أول عدد من " أدوماتو"، كنا نُقَدِّم رِجْلاً، ونؤخر أخرى، خوفاً ووجلاً من أن لا نستطيع الاستمرار في إصدارها، لأن الأجواء العلمية، في مجال الآثار، في العالم العربي، لم تكتب النجاح لعمل يحمل الفكر، الذي نحاول أن ننشره. وسبب ذلك أن الأوعية العلمية، عادة، ما تطلع بها جامعات، لا مؤسسات خيرية، لأن الجامعات لا تنظر إلى الربح أو الخسارة، ولكن تسير حسب قدرات هيئات التدريس فيها، وما يُنْشَر فيها مرتبط، عادة، بالرغبة في الترقيات العلمية. لذا، فإن العمل الأكاديمي فيها يخبو ويرتفع، حسب الحاجة. ولكن الذي دفعنا إلى العمل حقيقة، هو مؤسسة عبد الرحمن السديري، التي كفلت لنا عدم الالتفات إلى هذا الجانب، فهي لا تنظر إلى الربح أو الخسارة، لأنها مؤسسة خيرية. ولذا انطلقنا فرحين جذلين مصدرين عدداً وراء آخر، حتى أتممنا العدد العاشر وبدأنا العدد الحادي عشر، الذي تجده بين يديك، أيها الزميل الكريم. وما ذلك إلاّ بتشجيعك، وتشجيع أمثالك مِمَن أمدونا بأبحاثهم، ونتائج أعمالهم، وقراءات النقوش التي عثروا عليها، والرسوم الصخرية التي استهوتهم، وأولئك الذين استعرضوا عدداً من الكتب العلمية، التي استهوت كثيرًا من دور النشر،فأرسلت كتبيهم لتُعرض في مجلتنا، وأولئك الذين تعاونوا معنا على كتابة تقارير عن المؤتمرات العلمية، التي تُعقد عن التراث والآثار في الوطن العربي. فلهم جميعاً وافر تقديرنا، واعتزازنا، لكل ما قدموه. والعُتبى لأولئك، الذين لم نتمكن من نشر أبحاثهم، لأنها لم تمر عبر القنوات العلمية التي وضعتها هيئة التحرير.

ولعله يسعد القراء أن نتقدم بإحصائية موجزة عن الأبحاث، التي نشرت في كل تخصص، عسى أن تنبئ عن مسيرة النشاط الآثاري في الوطن العربي، في كل فرع من فروع الآثار. فقد بلغ عدد البحوث، التي نشرت في العشرة أعداد، سبعة وسبعين بحثًا باللغتين العربية والإنجليزية. ثلاثة وأربعون منها باللغة العربية، وأربعة وثلاثون باللغة الإنجليزية. أما من حيث موضوعاتها، فقد كان عدد الأبحاث في عصور ما قبل التاريخ ٣٠ بحثا، أي بنسبة تقارب ٣٩٪، أما الأبحاث التي نشرت في عصور ما قبل الإسلام فقد بلغت ثمانية عشر بحثا، أي بنسبة تقارب ٢٣٪ والبحوث التي نشرت في مجال النقوش القديمة والإسلامية بلغت ثلاثة عشر بحثًا، نسبتها حوالي ١٧٪، وأبحاث العصور الإسلامية بلغت عشرة أبحاث، نسبتها حوالي ١٣٪، أما الأبحاث الآثارية التي تناولت موضوعات متفرقة، فقد بلغت ستة أبحاث، نسبتها قرابة ٨٪. وإننا إذ نضع هذه الإحصائية، فإنما نرغب في أن نستزيد من كل فرع من فروع الآثار، ونبين للقارئ الكريم أن إضافة سبعة وسبعين بحثًا، على مستوى الوطن العربي، يعد قليلاً، إذا ما قورن بحجم التراث الحضاري الذي يملأ المنطقة، والعلماء الذين يشاركون في أعمال التنقيب.

*****

سعدت، في العام الماضي، عندما زرت العُلا، مُكّرمًا من قبل أهلها، وعلى رأسهم محافظها الأستاذ أحمد بن عبدالله السديري. وكان ذلك مساء الجمعة الرابع من ربيع الأول ١٤٢٥هـ، الموافق الثالث والعشرين من أبريل ٢٠٠٤م. وقد كانت ليلة لا يمكن أن أنساها مدى الحياة، لأن المشاعر الجياشة التي شعرت بها، من كل أهل العُلا صغيرهم وكبيرهم، أثرت في أعماق نفسي، وأيقنت ساعتها أنه "لا يذهب العرف بين الله والناس". فقد عرفت العُلا، منذ كنت في المرحلة الابتدائية والمعهد العلمي السعودي، حينما كان أبناء العُلا يبتعثون إلى المدينة المنورة، لكي يكملوا دراستهم المتوسطة والثانوية. فزاملت زملاء متميزين من أمثال: سالم شويكان، ومحمد سلمان طالب، وسليمان منحي، وغيرهم، وتفّرقت بنا الأيام وذهب كل إلى سبيله يجّد في هذه الأرض. وبعد عودتي من القاهرة، كان من طلابي، الذين دّرّسَت لهم ألفية بن مالك في السنة الأولى من كلية الآداب – الطالب عبد الله آدم نصيف. فتذكرت أنه كان من طلاب الصفوف الأولى في المعهد العلمي السعودي. وابْتُعِثت إلى بريطانيا، وعدت مرة ثانية إلى الجامعة، وذهبنا في رحلة، إلى العُلا ومدائن صالح، ضمن نشاط جمعية التاريخ والآثار، التي أنشأتُها بعد عودتي. وهناك، قابلت عبد الله آدم نصيف، مديرًا لإحدى المدارس. وفتح لنا والده – رحمه الله بيته، فكان نعم المُضيف، ما يدل على الكرم الحاتمي، الذي يتميز به أهل العُلا.

ومكثنا ثلاثة أيام، وكنت، خلال أسمارنا، أذكر لهم أماكن الآثار في العُلا، وكانوا يستغربون معرفتي بها، وما يدرون أنني قرأت

كتاب جوسين وسافنياك، فلم أترك فيه شاردة ولا واردة إلاّ وعيتها. وخلال هذه الأيام الثلاثة، تعرفت بوجهاء العُلا ومثقفيهم. أما زملائي، فلم أرهم لأنهم تركوا العُلا إلى مناطق مختلفة. وزرنا مدائن صالح، وهناك، تعرفت بشخص لا يمكن أن أنساه، هو دبشي الفقير، شيخ قبيلة الفقرا في المنطقة، فكان نِعَم الرجل خلقًا ودعابة وحزمًا. كل هذه الذكريات وغيرها طافت بخيالي حينما طُلِبَ مني أن أتحدث في أمسية التكريم، خاصة أنّ من قدم نبذة عن حياتي، هو تلميذي وابني وزميلي د. حسين بن على أبو الحسن، ذلك الشاب الذي لم أبخل عليه بكل ما أعرف من علم، فمنحني الوفاء والحب والتقدير.

وخلال إقامتي في العُلا، شاهدت ما أثلج صدري، وجعلني أشعر أن القافلة ما زالت تسير أسرع وأقوى مما كانت عليه، وذلك بفضل الله، ثم بجهد الشباب الكُفء الذي عاد يحمل شعلة الحضارة متقدة، علمًا وذكاء وتجربة. إن أبنائي ينقبون في خريبة العلا وفي المابيات، تلك الأمكنة الأثرية، التي تتطلع إليها العيون وتشرئب إليها الأعماق ونعم، أبناء هذا الوطن يبحثون عن تراث الأجداد بكل الحب والأريحية. فرح أبنائي بزيارتي إياهم، وطفقوا يشرحون لي طبقات الموقع وتفسيراتهم وتصوراتهم هنا وهناك. ثم زرت المبنى، الذي بنته الجامعة، وهو من أجمل المباني في المنطقة، لأنه يجمع بين الطرازين المعماري النبطي والحرف اللحياني، فجاء تحفة معمارية، كان لي شرف اقتراح تصميمه والإشراف على تنفيذه، منذ عام ١٩٨٢م حتى اكتمل عام ١٩٨٥م. إن فرحي بما شاهدته من نتائج أعمال فريق التنقيب في العُلا الذي يقوده أساتذة من قسم الآثار والمتاحف في جامعة الملك سعود - لا يعدله إلاّ فرحي بأول موسم للتنقيب، في قرية الفاو ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

*****

كان أول لقاء لي مع جوسين وسافنياك في قسم الدراسات السّامية، في كلية الآداب في جامعة ليدز في المملكة المتحدة، حينما اخترت مع أستاذي المشرف على رسالتي، أن أتناول النقوش اللحيانية، وأن أركّز على أسماء الأعلام في هذه النقوش، وذلك في عام ١٩٦١م، الموافق ١٣٨١هـ، وهناك، كان العمل العلمي الضخم الذي وضعه هذان العالمان الفرنسيان في بداية القرن العشرين - هو الرافد المهم الذي درسته، واستفدت منه، وصحبته طوال أيام دراستي. كما صحبت أعمالاً أخرى اعتمدت عليه، وأبدت رأيها في قراءاته للنقوش من أمثال: وارنر كاسكل، وفريد ريك وينيت، وغيرهما من الباحثين. وكلما أمعنت النظر في هذا المعلم العلمي، ازداد إعجابي بالمؤلفين، الذين استطاعا، خلال أيام قلائل، أن ينقلا ويسجلا كل هذا الكم من نقوش شمال غربي الجزيرة العربية، وخاصة العُلا ومدائن صالح. وأكملت رسالتي عن أسماء الأعلام اللحيانية، مقارناً بينها وبين أسماء الأعلام السّامية، منذ الألف الثاني قبل الميلاد وحتى قبيل الإسلام، من حيث الوزن الصرفي والاسم المركب والبسيط، ومن حيث المعبودات. ووصلت إلى نتائج متميزة، وعدت إلى الوطن، وأدخلت تدريس الكتابات القديمة، مادة تُدّرس في قسم التاريخ ضمن مادة النصوص التاريخية. وأصبح - ولله الحمد -هناك، اهتمام متنام بين الطلاب بالكتابات القديمة، جنوبيها وشماليها. وفكرت في طباعة رسالتي عام ١٩٧٥م، واتفقت مع مطبعة في بيروت، لكن الحرب اشتعلت في لبنان، وكان نصيب المطبعة الضياع، ومعها ضاع حلمي في أن أطبع رسالتي. وعاد تلاميذي إلى القسم من بعثاتهم، وأصبحوا - ولله الحمد - زملاء، وتحمسوا مرة أخرى لطباعة رسالتي ولكنني أحجمت هذه المرة؛ لأن طباعتها بعد قرابة عشرين عاماً، يعنى ضرورة إعادة كتابتها من جديد، وإضافة كل ما استحدث في هذا المجال، وهذا يحتاج إلى جهد مضاعف، ولذا شكرت تلاميذي الزملاء على تعاونهم، وقلت لهم: إن رسالتي أصبحت جزءًا من تاريخ الدراسات اللحيانية.

ولكنني كنت قد عقدت العزم على أن يخلفني في مجال النقوش العربية القديمة مجموعة من الباحثين السعوديين والعرب، فكان أن وجّهت أحدهم إلى بلجيكا؛ ليدرس مع أستاذ، كنت أتمنى لو درست أنا على يديه، وهو الأستاذ الجليل جاك ريكمانز في جامعة لوفان. وذهب الطالب إلى هناك، ودرس اللغة الفرنسية، وبدأ دراسة اللغات السامية. وفيما يبدو لي أنه استثقل الدراسة هناك، فانتقل إلى بريطانيا، ودرس اللغة الآرامية النبطية، وعاد إلى القسم، وأصبح - ولله الحمد - أستاذاً. ووجهت باحثين آخرين إلى ألمانيا؛ ليدرسا مع عالم جليل آخر، هو أ. د. والتر موللر، وعادا - ولله الحمد - أحدهما متخصص في النقوش السبئية، والآخر متخصص في النقوش المعينية. وفي هذه الأثناء، قُدِّر لي أن أشرف على أول رسالة ماجستير، في جامعة عربية، عن النقوش الثمودية والصفوية، في قسم التاريخ في جامعة الملك سعود. وقد حاز الطالب الأردني شهادة

الماجستير، وكرمته الجامعة، بأن طبعت رسالته عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ثم أعادت طباعتها أكثر من مرة، وأصبحت مرجعاً للدارسين بعد ذلك في مجال النقوش الصفوية والثمودية. وبدأ قسم الآثار والمتاحف بعد إنشائه عام ١٣٩٨هـ، بمنح درجتي الماجستير والدكتوراة، وبدأت القافلة تسير، ومعها بدأت تظهر دراسات متنوعة عن الحضارات القديمة في الجزيرة العربية وخارجها، بهمة كوكبة من العلماء والباحثين من الأقطار العربية، كانوا الشّعلة، التي أنارت الطريق أمام شبابنا، سواء المبعوثين منهم أو العائدين، في مجال الآثار القديمة والإسلامية والعمارة التقليدية.

أما في مجال الدراسات اللحيانية، فإنني أشيد بثلاثة أعمال علمية أشرفتُ عليها. عملان منها إضطلع بهما حسين بن علي أبو الحسن للماجستير ثم للدكتوراه، ودرس فيهما ثلاثمائة وسبعة وأربعين نصًا لحيانيًا من جبال عكمة وأم درج ودنن وأبو عود في العُلا ومن جبل إثلب بالحجر (مدائن صالح). وهي دراسة لا أشك أن من يقرأها من المختصين، سوف يستمتع بها لما، استخرجه الباحث من نتائج دينية واجتماعية وثقافية. أما العمل الآخر، فهو الذي إضطلع به خالد إسكوبي لمرحلة الماجستير، فقد استطاع أن يبدأ رحلة علمية من تيماء حتى منتصف الطريق في اتجاه الحِجْر (مدائن صالح)، ودرس ما يزيد على ثلاثمائة نقش لم تكتشف من قبل. من بينها، نقوش تتحدث عن نبونيد ملك بابل، الذي حكم تيماء، قرابة عشر سنوات. وقد أثمرت هذه النقوش عدداً من الأبحاث إضطلع بها علماء من قسم الآثار والمتاحف في جامعة الإمام سعود ومن الجامعات الأردنية والأجنبية، تفسيراً ومناقشة، وتمحيصا. كما أن هناك نقشًا يتحدث عن سلامة يثرب من حدث كان قد أحاط بها. كما أفادت هذه الأبحاث بمدى امتداد ثقافة دولة لحيان، وسيطرة مدينة ديدان، كمكانٍ له بريقٌ ديني وحضاري في تلك الفترة، من أنها عاصمة لدولة قوية، تسيطرُ على الطريق التجاري بين الجنوب والشمال.

*****

كنتُ حريصاً منذ إنشاء قسم الآثار والمتاحف عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، على أن أبعث طلاب الدراسات العليا في جامعات في بلدان مختلفة، فكان أن بعثت بعضهم إلى بريطانيا وبعضهم إلى أسبانيا وألمانيا وفرنسا. وهذا مما يمد القسم بمدارس منهجية مختلفة ولغات عالمية ومتنوعة، ما يهيئ للقسم تنوعاً فكرياً وثقافياً. ويمكّن لهم من أواصر القوة، لحاجة أحدهم إلى الآخر، ويُكَوَّن مدرسة علمية متميزة. إن هذا الاتجاه قد نجح في تكوين علاقة حميمة بين بعض الملحقين الثقافيين في الرياض وقسم الآثار والمتاحف. إذ استطاع القسم أنْ يُكَوِّنَ علاقةً جيدة بالملحق الثقافي الفرنسي، وخاصة مسيو بونيسيه، ذلك الرجل الفاضل الذي زارني في مكتبي عام ١٤٠٩هـ، حينما كنتُ عميدًا لكلية الآداب. وتجاذبنا أطراف الحديث، بشأن العلاقات الثقافية بين المملكة العربية السعودية وجمهورية فرنسا، فاقترحت عليه الاهتمام بما أنجزه جوسين وسافنياك، من عمل علمي متميز، من جراء زيارتهما شمال غربي الجزيرة العربية، قادمين من القدس، فقال لي: كيف؟ قلت: لقد جاءا إلى هنا عام ١٩٠٧م فلماذا لا يكون عام ٢٠٠٧م، هو الاحتفال بمرور مائة عام على زيارتهما، فيترجم كتابهما إلى العربية ويؤتى بالصور التي صوراها في معرض للصور وتلقى محاضرات في ندوة علمية عالمية، عن عملهما، ودور هذا العمل في نهضة العمل الأثري في المنطقة. ففرح الرجل بهذا المقترح، وخرج مبتهجاً، راجياً أن يحقق هذا الهدف. لكن القدر لم يمهله، فتوفي الرجل قبل أن يحقق هدفه. وبوفاته، تقلصت الأمور إلى إصدار نسخة مصورة عن الكتاب، من خلال المعهد الفرنسي للآثار الشرقية في القاهرة. وقلنا لقد فعلوا خيراً، إذ إن الكتاب يُعد من النوادر في عصرنا، ومن لديه نسخة من الطبعة الأولى القديمة يشعر، وكأنه يملك كنزاً. وجرت محاولات لتحقيق الهدف الأكبر، وكُوِّنت لجان علمية مشتركة من قسم الآثار والمتاحف في جامعة الملك سعود، وقسم الآثار في جامعة إكس أون بروفانس في جنوب فرنسا، لكن لم يُقَدَّر للعمل أن يخرج إلى النور لظروف إدارية. ومرت السنون، وإذا بي يُهدى إليَّ نسخة مترجمة للجزء الأول، أهدتها إليَّ تلميذتي د. صبا عبد الوهاب الفارس، التي اضطلعت بترجمتها مشاركة مع الأستاذ محمد الدبيات، وقام بمراجعته وعلق عليه كل من: أ. د. سليمان بن عبد الرحمن الذييب، وأ. د. سعيد بن فايز السعيد. وبقدر فرحتي بصدور الكتاب، من خلال نشاط دارة الملك عبد العزيز بالرياض في السعي الحثيث إلى نشر كل ما له صلة بتاريخ الجزيرة العربية وتراثها، فإنني حزنت كثيرًا لأسباب: منها المنهجية، ومنها العلمية، ومنها إهمال تصحيح كثير من الأخطاء عن الأماكن والحقائق التاريخية، واختصار المصادر التي اعتُمِد فيها على ما قرب تناوله، وغير ذلك كثير مما سوف أتناوله في بحث مستقل، قريبًا إن شاء الله.

رئيس هيئة التحرير